

مناهج النقد الأدبي في العصر الجاهلي

عباس عرب^١، أحمد خنيفي زاده^{٢*}

١. أستاذ مشارك، قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة فردوسي مشهد

٢. طالب دكتوراه، اللغة العربية وآدابها بجامعة فردوسي مشهد

(تاريخ الاستلام: ١٤٢٢/٣/١١ : تاريخ القبول: ١٤٢٢/١١/٢٣)

الملخص

تكلّمنا في هذا المقال عن طبيعة النقد الأدبي في العصر الجاهلي ومناهجه، وكيفية الجمع بين المنهجية واللامنهجية في ذهن النقاد الجاهليين. فذكرنا ما يروي عنهم في النقد اللامنهجي والمعتمد على الذوق الفطري الساذج وحاولنا أن ندرس لامنهجيتهم في النقد في ظلّ منهجيتهم النقدية وأن نستخلص منها مناهجهم في النقد وأن نأتي عليها بدلائل وشواهد تاريخية تجعلنا نجمع بين الفطرة الأدبية الساذجة والذوق الأدبي والفني الرفيع. فكانت حصيلة كل ذلك أربعة مناهج نقدية، المنهج الفني والمنهج التصويفي «أو التصويري» والمنهج التفضيلي والمنهج التصنيفي. وقد ذكرنا للنقد التصويفي امثلة كثيرة على مرّ العصور التاريخية جعلنا نطمئنّ إليه كمنهج علمي في النقد خاصة ما ذكرناه عن استخداماته في العصر الحديث.

الكلمات الرئيسية

النقد الجاهلي، النقد التصويفي، تاريخ النقد عند العرب، النقد التصنيفي.

مقدمة

إن الأدب الجاهلي مازال يحتاج إلى مزيد من البحوث والدراسات للكشف عن ماهيته وطبيعته وطاقاته في مجال الشعر والنقد. إن هناك الكثير من الباحثين في هذا المجال لم يتوخوا الانتباه الكافي لدراسة الأدب الجاهلي، ربما لأنهم يدرسون أدب فترة كانت تسودها الجاهلية مما يسهل على الباحث إبعاد صفة العقلانية في كل أمورهم، لغلبة السذاجة الفكرية عن حياتهم. لكن الأمر ليس كذلك في مجال الشعر والأدب لأن هناك شعراء عمالقة تألقوا في سماء الشعر ولأن هناك مسابقات شعرية وأسواق أدبية كانت تمنح الفائزين جوائز مادية ومعنوية مثل الأموال والأوسمة والألقاب. وكان هناك الكثير من الشعراء الذين يتعصبون لشعرهم لكنهم لن ينسوا ببنت شفة في الاحتجاج على الحكام في تلك الأسواق علما بأنهم كانوا يثيرون الحروب لأصغر الأمور وأتفهها علما بأن هذه الأسواق كانت مصدرا للمفاخرة ومنها أخذ اسم عكاظ (الجمعي، دت، المقدمة). لا بد من أنهم كانوا يتلقون ردودا مفحمة من قبل هؤلاء الحكام كما سنذكر بعض النماذج لمثل هذا الأمر. إن الباحثين يحاولون أن ينفوا صفة العقلانية عن النقد الجاهلي وأن ينسبوا كل ملاحظات النقد الجاهلي إلى ذوق فطري ساذج، وانفعالات سريعة لا تعرف التعليل رغم ما كان عليه الأدب الجاهلي من رقي وجمال يحتاج إلى وعي أدبي ناضج لخلقها. ويحدثنا تاريخ الأدب وتاريخ النقد على مدارس شعرية كانت تعلم الشعر للشباب، كمدرسة زهير بن أبي سلمي التي كانت تعلم كيفية تحسين قول الشعر علاوة على روايته (ضيف، ١٩٦٧، ص١٩). نحاول في هذا المقال أن نثبت منهجية النقد الجاهلي في كثير من الملاحظات النقدية التي وصلتنا عنهم ولذلك قسمنا تلك الملاحظات إلى أربعة أقسام هي الفنية والتفضيلية والتوصيفية والتصنيفية، تكلمنا ضمنها عن ماهيتها وطبيعتها لأداء ما كنا نهدف إليه من خلال كتابة هذا المقال.

سابقة البحث

لقد تكلم الكثير من النقاد عن النقد الجاهلي في كتبهم لكنهم لم يحاولوا أن يتكلموا عن طبيعته ومستلزمات مرحلته ولم يتكلموا عن منهجيته وطاقته على نقد أدب راق وجميل كالشعر الجاهلي. إن دراساتهم بصراحة لا تستطيع أن تلبي حاجات الباحثين إذ تبقى أسئلة مطروحة دون أن يوجد لها رد في خضم كل هذه الدراسات. وهي أسئلة طرحنا بعضها في المقال تحتم

علينا أن ننظر نظرة جديدة إلى ملاحظات الجاهليين النقدية التي بين أيدينا. من أهم هذه الدراسات نستطيع أن نذكر كتاب «النقد» لشوقي ضيف وكتاب «أسس النقد الأدبي عند العرب» لأحمد أحمد بدوي وكتاب «النقد الأدبي» لأحمد أمين وكتاب «تاريخ النقد الأدبي عند العرب» لعبد العزيز عتيق وكتاب «تاريخ النقد الأدبي عند العرب» لطله احمد إبراهيم.

مشكلة دراسة النقد الجاهلي

إن من أكبر مشاكل دراسة النقد الأدبي في العصر الجاهلي عدم تبويب هذا النقد وما وصلنا إلينا من أخباره، مع تشكيك البعض في تلك الأخبار بحجج واهية وواهنة في أغلب الأحيان. إننا سنحاول تبويب هذا النقد ودراسة أولاً ومن ثم نحاول الرد على التشكيكات التي قالها بعض الكتّاب والنقاد بحجج ثابتة ومعقولة وسيأتي هذا الرد في محله وبعد كل تشكيك ذكرناه في هذا المقال.

إننا إذا نظرنا في تلك الأخبار وجدنا أن العرب كانت في بعض الأحيان تنقد شعراءها نقداً صريحاً ومعللاً يبين الناقد فيه أحكامه بوضوح وشفافية نستطيع أن نطلق عليه عنوان النقد الفني لغلبة الصبغة الفنية في النقد على تلك الأحكام الواضحة والشفافة وهذا ما يقول عنه بعض النقاد بان من هذه الملاحظات المحدد الفكرة، الواضح الهدف، (بدوي، ١٩٩٦، ص ٢) لكن لم يؤدي ذلك إلى أن يعدوا ذلك منهجية في تقديم بل حاولوا دراسته في ظل الذوق الفطري البسيط. كما نرى في بعض الأحيان نقداً تفضيلاً غير معلل يقوم الناقد بتفضيل شاعرٍ على شاعرٍ أو على الشعراء اجمعهم. ونجد أيضاً بعض الأحكام النقدية الغامضة التي يصف ويصور فيها الناقد إحساسه ورأيه تجاه النص وكأنما يصور أحكامه النقدية بدل أن يشرحها لأمرٍ ما، وذلك هو المنهج التوصيفي أو التصويري في النقد، كما أن هناك منهجاً رابعاً علاوة على المناهج الثلاثة التي ذكرناها وهو المنهج التصنيفي الذي يحاول الناقد فيه أن يبين طبقات الشعراء حسب شاعريتهم فالأول هو الفحل الخنذيذ والثاني هو الملقق والثالث هو الشاعر والرابع هو الشعور (الحسين، د.ت، ص ٣٣). ويعتمد هذا المنهج الرابع في أصوله وتطبيقاته على تلك المناهج الثلاثة. سنوضح ونبين كلاً منها على حدة ونبين قيمتها النقدية.

المنهج الفني

المنهج الفني هو من أول المناهج التي اعتمدت عليها العرب في نقدها للشعر لوجود أصول وقواعد عندها كان الشعراء ملتزمين باتباعها في شعرهم. ومن الناحية التاريخية قد

شهد تطورات كبيرة على مرّ العصور.

إنّ الناقد في هذا المنهج ينظر إلى العمل الأدبي نفسه دون الأديب وينظر إلى مقوماته ليكشف عمّا فيه من الجمال والقيمة الأدبية الذاتية وليبحث عن سرّ قوته وجماله (عتيق، دت، ص ٢٧٧)، كما ينظر الناقد في هذا المنهج إلى جمال التعابير ونسجها ويدقق في استخدامات الأديب اللغوية ويبحث عن صورته الأدبية وغير ذلك من الأمور التي تعطي للعمل الأدبي روعته وجماله التي يقربّه من النفوس. وإذا دقّقنا النظر فيما وصلنا من الملاحظات النقدية في العصر الجاهلي نرى الكثير من الملاحظات الفنية الممنهجة التي يرشد فيها النقاد الشعراء إلى السموّ بفنّهم. وقد درسنا اللغة والمعنى والقواعد الشعرية في النقد الفنّي الجاهلي بصورة مفكّكة.

النقد الفني الجاهلي وموقفه من اللغة والمعاني

إنّ النقد الفني في العصر الجاهلي كان يدقق في استخدامات الشاعر اللغوية مثل ما يروى عن طرفة بن العبد عندما سمع المسيب بن علس يصف جملة ويقول:

وقد أتاسى الهمّ عند احتضاره بناجٍ عليه الصيعرية مكدم

فقال طرفة: لقد استنوق الجمل؛ (أمين، ١٩٨٣، ص ٢٨٤؛ ضيف، ١٩٦٤، ص ١٩) لأنّ الصيعرية ممّا توصف به النوق وهي سمه حمراء تعلّق على عنق الناقة خاصّة.

ومن أروع ما يروي النقد الفني اللغوي عند العرب الجاهليين هي قصة حسان بن ثابت الأنصاري مع النابغة الذبياني؛ إذ فضّل الخنساء عليه فقال حسّان: واللّه لأنا أشعر منك ومن أبيك ومن جدك. فقال له النابغة حيث تقول ماذا؟ فقال حيث أقول:

لنا الجفّنات الغرّ يلمعن بالضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما
ولدنا بني العنقاء وابني محرق فأكرم بنا خالاً وأكرم بنا ابنما

ومن أروع ما يروي عن نقد المعنى في العصر الجاهلي، هي قصّة كعب بن زهير مع النابغة الذبياني إذا أعان كتبّ - وكان صغيراً يومذاك - النابغة على توضيح قوله الذي لم يعجب النعمان بن المنذر، وهو:

تراك الأرض إمّا متّ خفّاً

فأصلح كعبٌ له ما في هذه البيت من معانٍ لا تلائم نفس الملك، وقال له:

ما يمنعك يا عم أن تقول:

وذاك بأن حلت العزّ منها فتمنع جانبيها أن يزولا

وقد أعجب النابغة كثيراً بنقد كعب بن زهير له، إذ قال له: «وقد جعلت لك يا ابن أخي

ما جعل لي» (م.ن، ص ٣٧).

فالنابغة لم ينتبه لألفاظه ومعانيه وهو يخاطب النعمان بن المنذر؛ إذ قال له تراك الأرض عند موتك خفّاً لكن كعباً جعل قوله أكثر ملائمة مع نفس الملوك فذكر «حلت العزّ منها» فأصلح بذلك ما فسد من المعاني.

النقد الفني والقواعد الشعرية

إنّ النقاد الجاهليين اهتموا في تقديم الفني علاوة على اللفظ والمعنى بنقد سائر قواعد الشعر كالقافية والروي وعيوبهما والأوزان والبحور وغير ذلك، كالذي يروي عن أم جندب زوجة امرئ القيس. وهذه القصة هي في الحقيقة من أهم ما يروي عن النقد الفني الممنهج في العصر الجاهلي. يروي أن علقمة بن عبدة وامراً القيس احتكما إليها في أيهما أشعر فقالت لهما: قولاً شعراً تصفان فيه الخيل على روي واحد وقافية واحدة فحكمت في نهاية المطاف لصالح علقمة وقدمته على زوجها امرئ القيس؛ (عتيق، ١٩٨٠، ص ٢٣) لأنّ علقمة برأيها قد وصف فرسه بالسرعة كما فعل امرؤ القيس ولكنّه أجهد فرسه وبرح عليها ضرباً بالسوط مما يدل أنها لم تكن سريعة.

ولا نريد أن نقول أنها كانت محقة في نقدها وكان حكمها صحيحاً. إنما نريد أن نقول أنها كانت تعرف وحدة الأغراض للحكم على أفضلية أحدهما على الآخر كانت تعرف دور القافية والروي في التأثير على شعر الشاعر. لأنّ بعض القوافي أصعب في ذاتها من الأخرى على الشاعر وإبراز أحاسيسه ومعانيه الشعرية. وهذا هو النقد الفني بعينه. ويشكك البعض في هذه الرواية وقد يكونون محقّين في توخيهم الحذر، لكن برأيي ليس في هذه القصة ما يدعونا إلى الشك لأن من يمارس الشعر بحكم تجربته سيفهم مثل هذه الأمور البدائية والبسيطة جداً. وهذه الأمور يفهمها حتى شعراء اللغة الدارجة الذين يمارس أغلبهم الشعر كهواية دون علم بالنقد الأدبي. كما يروي مثل هذا عن حسان بن ثابت إذ سمع النابغة الذبياني ينشد:

عرفتُ منازلَ بعريثاتٍ فأعلى الجزع للحَيِّ المُسبِّينِ

فقال: هلك الشيخ ورايته تبع قافية منكراً (م.ن، ص ٣١). فإنّ حساناً بحكم ممارسته

لصناعة الشعر ونقده كان يعرف قيمة القافية النادرة في دلالتها على قدرة الشاعر الفنية وسعة إحاطته بمفردات اللغة. كما عيب على النابغة الذبياني الإقواء في شعره وهي قضية مشهورة جداً في تاريخ الأدب العربي (الحجازي، ١٩٨٢، ص ٣٥). فقد رفع النابغة الروي في أحد أبياته وهو مجرور في باقي الأبيات في قوله مثلاً:

أمن آل مية رائح أو مقتدى عجلان غير زاد وغير مزود
زعم البوارح أن رحلتنا غدا وبذلك حدثنا الغراب الأسود

(أمين، ١٩٨٢، ص ٣٨٤)

وجاء في نقد أبوبكر الخليفة الأول، أنه فضل النابغة الذبياني وقال: «إنه أحسنهم شعراً، وأبعدهم غوراً، وأعذبهم بحراً». إن مما تقدم، نفهم أن العرب كانوا على معرفة تامة بنقد اللغة والمعنى ونقد كل ما يتصل بقواعد الشعر. فكانوا ينقدون شعراءهم بصراحة وكانوا يعيبون عليهم هفواتهم الشعرية.

إلا أننا لا نستطيع أن نقول إن نقدهم كان مثل النقد المعاصر على درجة عالية من التبيين العلمي والتدقيق الفني. إن دراسة باقي المناهج النقدية في العصر الجاهلي تعطينا نظرة أوسع من هذه، حول مدى علمهم بقواعد النقد، فلندرسها ونبين ما فيها.

النقد التوصيفي

هو منهج اللامنهجية للتعبير عن شعور الناقد بأمور دقيقة في النقد لا يستطيع أن يعبر عنها بلغة المصطلحات الموضوعية والمستخدمة عند أهل الأدب والنقد، لعدم علمه بها أو لأنه يشعر تجاه النص بما يفوق تلك الأصول والقواعد التي اتفق عليها أهل الفن.

وقد تحمل بعض الأوصاف في هذا النقد معانٍ نقدية ثابتة للدلالة على مدلولاتها فان ما يختص من الأوصاف بالبصر مثل التلألؤ يدل على الأسلوب، وما يختص منها بالذائقة والمضغ يدل على المعاني، لكن لا يمكن أن يتخذ من ذلك قاعدة عامة لان التوصيف لا ينفك عن النسبية في ذاته وكل ما في الأمر أننا بعد اكتمال التوصيف نستطيع أن نثق من دلالاتها. إن هذا المنهج هو تكملة للمنهج الفني في العصر الجاهلي فقد استخدمه الجاهليون استخداماً واسعاً يلزمنا أن نلفت نظرنا إليه وندرسه كمنهج نقدي جاهلي، لكن من المؤسف جداً إن الباحثين لم يعيروا هذا المنهج اهتماماً بالغا، وإن نقلوا وتناقلوا أخباره في كتبهم، لكنهم فعلوا ذلك لمجرد المتعة الفنية إذ أغلب هذه التوصيفات جميلة في ذاتها الأدبية والفنية.

إنَّ اللجوءَ إلى هذا المنهج النقدي يرجع إلى طبيعة فنّ النقد. فهو أوسع من أن يحدَّ بقواعد وأصول محدّدة ولهذا ترجع اغلب الاختلافات الأدبية إلى النقد الأدبي؛ لأنه يقال ما اختلف العلماء في علم من العلوم كما اختلفوا في النقد وقد فشلت الكثير من المحاولات لتبويب ووضع قواعد ثابتة للنقد الأدبي ولكن كل تلك المحاولات باءت بالفشل الذريع ولم تفلح ولم توفق إلى شيءٍ كثير (حسين، د.ت، ج٢، ص٥٢)، ذلك لسعة مجالاته ودقّه مسالكه.

مازال النقاد يختلفون في الكثير من الأصول وتطبيقاتها. إنَّ الناقد في بعض الأحيان يشعر بعد سماعه أو قراءته نصّاً أدبياً بأحاسيس لا يمكنه أن يعبر عنها فيبدأ بوصف آرائه وأحاسيسه فيها ويحاول أن يصورها.

إنه في هذه الحالة يشعر لكّنه لا يستطيع أن يبين ما في نفسه بلغة علمية وبمصطلحات موضوعية وقواعد مثبتة فيحاول أن يبين رأيه بالأوصاف والصور بدل المصطلحات والقواعد والأصول.. وهذا ما نجد الكثير منه حتى في كتب النقد الحديثة إذ يضطرُّ النقاد إلى هذا الأمر؛ لأنَّ الأدب أوسع من أن يحدَّ بأصول النقد.

إنَّ الناقد الجاهلي كان أيضاً في أغلب الأحيان يواجه هذه المشاكل في نقده؛ إذ يعرف كثيراً من الأمور عن الشعر والأدب من جانب لكنه كان يجهل الكثير من هذا الفنّ. إنّه كان يعرف الأخطاء اللغوية والبحور الشعرية والقوافي وخواصها كما كان يعرف الكثير عن المعاني والألفاظ ودورها في سمو وانحطاط الأدب. لكنّه كان يجهل أموراً أخرى مثل وحدة النسيج، والأسلوب وانسجام اللفظ والمعنى وغير ذلك من الأصول النقدية التي كان يدركها في كنه ذاته لكنّه لا يستطيع أن يعبر عنها، لأنّه يدركها بذوقه الأدبي ولم يجد من المصطلحات والمعايير ما يستطيع أن يعبر بها عما يفهمه من النصّ الأدبي.

إذن إنَّ الضرورة تضطرُّه أن يصف رأيه بدل أن يشرحه بالمصطلحات العلمية، وهذا لطبيعة فنّ النقد من جانب وطبيعة الناقد من جانب آخر. مثلاً إن العرب الجاهليين كانوا يلاحظون في شعر الأعشى ملمحاً موسيقياً إضافياً؛ لكنّهم لم يعبروا عن هذا بمصطلح علمي بل لجأوا إلى وصف هذه الحالة فسموه صنّاجة العرب. (العاكوب، ١٩٩٨، ص٤٠) والواقع أنّ الناقد العربي الجاهلي كان محقّقاً في تسميته الأعشى بالصنّاجة؛ إذ أنّه يعدُّ حلقة مهمة من حلقات الشعر الجاهلي وهي حلقة تضيف جديداً واضحاً في الموضوعات والمعاني وخاصّة في سهولة الألفاظ وخفّة الأوزان وجمال الأنغام والألحان (ضيف، ١٤٢٧، ج١، ص٣٦٥). كما أنّ العرب الجاهليين انتبهوا إلى جودة الأسلوب عند طفيل الغنوي وعبروا عن ذلك بأن سمّوا

طفيلاً، محبباً. (العاكوب، ١٩٩٨، ص٣٣) فإنّ التحبير في اللغة يعني التحسين والتجويد.

ومن أطرف ما يروي عن النقد التوصيفي في العصر الجاهلي، احتكام بعض الشعراء في مجلس من المجالس إلى ربيعة بن حذار الأسدي فحكم على شعرهم بتوصيفات جميلة فقال للزبيرقان بأنّ شعرك ك لحمٍ أسخن لا هو أنضج فأكل ولا ترك نيتاً فينتفع به، ومعني ذلك أنّ شعر الزبيرقان كلام في صورة شعر لم يبلغ درجة النضج بل هو فاسدٌ لا غناء فيه؛ لأنّه فقد الجزالة وحرارة العاطفة اللتين تجعلان له طعماً ممتازاً. (حاج إبراهيمي، ١٣٨٥، صص٥-٦)

وحكم على شعر عمرو بن الأهتم بأنّ شعرك كبرود مبر يتلأأ فيها البصر، فكلماً أعيد فيها النظر نقص البصر ومعني ذلك أنّ أسلوبه الشعري جيد السبك لكنّه يخلو من كبير معنى. (العاكوب، ١٩٩٨، صص٣٤-٣٥) والواقع إنّ هذا ينطبق تماماً على شعره فإنّ ألفاظه برّاقة وأساليبه خلّابة لكننا إذا دققنا النظر في حقيقته لم نجد شيئاً. وقال لعبدّة بن الطبيب بأنّ شعره، كمزداة أحكم خرزها فليس يقطر منها شيءٌ. ومعني ذلك أنّ في شعره جزالة وأحكام وقوة اسر لايري الناقد فيه ضعفاً ووهناً في الأساليب والمعاني.

والحقيقة أنّ العرب لم تكن تطلق هذه التشبيهات والتوصيفات التي تدلّ على معنى وسيع وعميق في ذاتها، لمجرد التفتّن والتسلي بل إنهم كانوا يقصدون بها نقداً أدبياً ينطبق في كثير من الأحيان على شعرائهم وأدبائهم انطباقاً تاماً وهذا. ومثل هذا النقد الذي روينا عن مجلس الزبيرقان يحول أن يفاضل بين الشعراء حسب مزايهم وعيوبهم (أمين، ١٩٨٣، ص٣٨٤). فقد اتّخذوا التوصيف منهجاً نقدياً اعتمدوا عليه في جلّ أحكامهم النقدية. ويبدو أنّ العرب اعترفوا بهذا المنهج كمنهج نقدي علمي فلم نرَ أحداً يحتجّ على الحكم في هذه الرواية وهو ربيعة بن حذار الأسدي وذلك يدلّ على أنهم قبلوا حكمه النقدي واقتنعوا بما فيه.

كما كان العرب يقبلون نقد الحكام في الأسواق الأدبية والمسابقات الشعرية ولم يكونوا يخالفونهم ويحتجّون عليهم وعلى أحكامهم النقدية إلا في قليل من الأحيان كالذي روينا من احتجاج حسّان بن ثابت على النابغة الذبياني إذ قال له والله لأنا أشعر منك ومن أبيك ومن جدك. لكنّه بعد المناقشة استسلم أمام حكم النابغة الذبياني وقبله، كما ذكرنا ذلك قبل ذلك.

كل هذا لا نستطيع أن نتصوّره في أذهاننا ما لم نعرف قيمة الشعر والشاعر عند العرب إذ أنهم كانوا ينظرون إلى شعرائهم كجزءٍ من حياتهم بل كأصلٍ في كيان القبيلة فكما يقول ابن رشيق «كانت القبيلة من العرب إذا نبغ فيها شاعرٌ أتت القبائل الأخرى فهنأتها، وصنعت

الأطعمة واجتمعت النساء يلعبن بالمزاهر، كما يصنعون في الأعراس، ويتباشر الرجال والولدان، لأنه حماية لأعراضهم، وذب عن أحسابهم وتخليد لمآثرهم وإشادة بذكرهم» (زيدان، ١٩٥٧، ج١، صص ٩٦-٩٧؛ الشرفاوي، د.ت، صص ١٢٧-١٢٨). كل هذه العصبية من العرب على شعرهم وقبيلتهم ولكنهم لم يحتجوا احتجاجاً يذكر على النقاد.

لماذا حقاً أنهم لم يحتجوا على شعرهم وهو أعلى شيء عندهم في نظامهم القبلي؟ في حين أنهم كانوا يثيرون الحروب حول أصغر الأمور وأتفهها؟ والجواب سهل بل غاية في السهولة؛ لأنهم كانوا يواجهون عند احتجاجهم ردّاً علمياً مفحماً من النقاد. الأمر الذي لم يكونوا يستطيعون إنكاره بل قد يجدون عند الاحتجاج عاراً ومثلية؛ إذ إن كلام النقاد في شاعرهم قد يعم وينشر في كل أرجاء البلاد.

النقد التوصيفي بعد العصر الجاهلي

قلنا إن الجاهليين اتخذوا التوصيفات منهجاً في نقدهم وأنهم حاولوا أن يبينوا آراءهم النقدية وما تلقي إليهم فطرتهم الأدبية، بصورة توصيفات تنظر في أغلب أحيائها على حقيقة تلك النصوص الأدبية وقيمتها.

يبدو أن الذين جاؤوا من بعد الجاهليين أعجبوا بهذا المنهج كما أنهم قد اضطروا لاستخدامه لنفس الأسباب التي اضطرت الجاهليين. ونعني بهذا أن العرب في العصور المتأخرة وإن اتجهوا نحو نقد منهجي علمي لكنهم وجدوا أن النقد أوسع من أن يحد ويحصر بأصول وقواعد. إن الناقد في بعض الأحيان يحسّ بأمور لا يستطيع أن يعبر عنها بالمصطلحات النقدية التي يجدها في الكتب. كما أن الناقد في بعض الأحيان لم يستطع أن يحيط علماً بالنقد لسعته وكثرة مناحيه فيلتجئ إلى التوصيف بدل الشرح والتعليق النقدي العلمي.

إن النقد التوصيفي على مرّ العصور وحتى العصر المعاصر كان من أهم المناهج النقدية مع التطورات الكبيرة والمذهلة التي وقعت في فنّ النقد. إن النقاد في هذه العصور استخدموا النقد التوصيفي إلى جنب كلّ المناهج والأساليب النقدية التي برعوا فيها براعة تفوق التصوّر والخيال. وهذا اعتراف ضمّني منهم بمنهجية هذا النقد وصحة أسلوبيته.

إن الكثير من النقاد والأدباء استخدموا وبرعوا في هذا النوع من النقد منهم بديع الزمان الهمذاني والحريري كما أن الكثير من النقاد المعاصرين البارعين في النقد قد استخدموا قسماً يسيراً منه إلى جنب نقدهم المنهجي والعلمي منهم طه حسين وشوقي ضيف.

ولا نريد هنا أن نطيل في الكلام عن النقد التوصيفي وسنورد نماذج قليلة منه حتى نبين مدى اعتماد الأدباء بعد العصر الجاهلي وحجم استخدامه في نقدهم. إنها أحكام نقدية وجيزة ذات دلالات واسعة ودقيقة. يقول النقاد مثلاً عن الفرزدق وجريير: «أن الفرزدق ينحت من حجر وجريير يغرف من بحر». أنه حكم نقدي يدلنا على حقيقة شاعرية كل من الشاعرين.

إن شعر الفرزدق مع جماله شعر الصنعة نحس جهده لاختيار الكلمات كما نشعر بثقل الوقع مع فخامة وجلال شعره. لكن شعر جريير يروعك قبل أن تقرأه. أنه ينساب معك فتقرأه وتحس بسهولة الأسلوب وانسيابه. كما ترى أن شعره قائم على عاطفة صادقة تعطي شعره سمة الخلود. وهذا يدل على أن شعر الفرزدق فيه تصنع وشعر جريير مطبوع. وهذا بديع الزمان الهمداني يوافق هذا الرأي إذ يقول: «جريير أرق شعر وأعزر عزرا والفرزدق امتن صخرًا، وأكثر فخرا، جريير أوجع هجوا، أشرف يوما والفرزدق أكثر روما، وأكرم قوما وجريير إذا نسب أشجى، وإذا سلب أردى، وإذا مدح أسنى، والفرزدق إذا افتخر أجزى، وإذا وصف أوفى» (حسني، ٢٠٠٣، صص ١٣-١٤).

ويصف الهمداني شعراء آخرين وينقد شعرهم واصفاً فيقول مثلاً عن زهير «يذيب الشعر والشعر يذيبه، ويدعوا القول والسحر يجيبه» (م.ن، ص ١٣٩). وقد يختلف بعض النقاد والباحثين مع رأي الهمداني هذا، لكن في الحقيقة أن هذه الطريقة النقدية كانت شائعة ومنتشرة اشد الانتشار في العصر العباسي إلى جانب سائر مدارس النقد.

من النقاد المشهورين بهذه الطريقة النقدية هو أبوحيان التوحيدي إذ يصف بظرافة ودقة بعض شعراء عصره فيقول مثلاً عن السلامي: «هو حلو الكلام متسق النظام كأنما يبسم عن ثغر الغمام، خفي السرقة، لطيف الأخذ، واسع المذهب، لطيف المغارس، جميل الملابس، لكلامه لطية بالقلب وعبث بالروح ويرد على الكبد» (عباس، ١٩٧١، ص ٢٢٩). ويقول عن الحاتمي «وأما الحاتمي فغليظ اللفظ كثير العقد، يحب أن يكون بدويًا قحاً وهو لم يتم حضرياً، غزير المحفوظ، جامع بين النظم والنثر، على تشابه بينهما في الجفوة وقلة السلاسة والبعد عن المسلوب، بادي العورة فيما يقول كأنما يبرز ما يخفى ويكدر ما يصفى، له سكرة في القول إذا أفاق منها خمر وإذا خمر سدر، يتناول شاخصاً فيتضاءل متعاسماً، إذا صدق فهو مهين، وإذا كذب فهو مشين. (م.ن، ص ٢٢٩)

إن المعاصرين استخدموا كثيراً هذه الطريقة النقدية ودرسوا في ظلها قسطاً غير قليل من الشعر العربي المعاصر. على سبيل المثال إن الدكتور شوقي ضيف ينقد الشاعر علي محمود طه

نقداً يغلب عليه طابع الوصفية: «استطاع علي محمود طه أن يكون لنفسه أسلوباً شعرياً براقاً»، ويقول عنه أيضاً: «هو من ناحية الأسلوب أكثر شعرائنا بعد شوقي توفيقاً في صياغته الشعرية، كأنما كانت لديه خبرة تمكنه من أن يقتصر الكلمات الشعري، في القصيدة التي يصنعها، فإذا هي كعقد من الجواهر تتألق فيه حباته» (ضيف، دت، ص ١٦٢). ويقول أيضاً عن طنين ألفاظه الخلابة: «وهذه هي أروع خصائصه، فهو يؤلف القصيدة وكأنه يؤلف جوقات موسيقية، وهي جوقات لفظية، ليس فيها فكر عميق، ولا استبطان في الإحساس، وإنما هذا الشرر اللفظي الذي يجعل أشعاره بل ألفاظه، تتوهج توهجاً. (م، ن، ص ١٦٤)

فكما نرى أن الطابع الوصفي غالب في نقد شوقي ضيف هنا. فهو يبين أموراً لا يستطيع أن يعبر عنها بصورة أجمل من هذه الصورة الوصفية التي تنقل لنا آراء الدكتور شوقي ضيف النقدية إزاء شعر علي محمود طه. فقد وصف حسن اختياره للكلمات بأنها كعقد من الجواهر ثم زاد: إن حبات ذلك العقد تتألق فيه، وهي مبالغه لتبيين براعته في اختيار ألفاظه الشعرية. كما يصف أسلوبه الشعري بالبراق لتمييزه بل يصف ألفاظه بالشرر تتوهج توهجاً. إننا لا نريد أن نتوغل أكثر من هذا في النقد التوصيفي في العصور المتأخرة وخاصة العصر المعاصر؛ لأنه يستوجب ما لا طاقة لهذا المقال به. وإنما الذي يهمنا هو إثبات أن هذا المنهج منهج نقدي علمي قديم. وقد استخدم الجاهليون هذا المنهج للحكم على أدبهم وشعرهم ولتمييز بين شعرائهم وطبقاتهم.

النقد التفضيلي

إن الناقد في هذا النقد كما يفهم من تسميته يحاول أن يفضل شاعراً على آخر مستنداً إلى تعليل أو غير مستند. إن هذا المنهج النقدي كان شائعاً في العصر الجاهلي وهذا ما دعا أكثر الباحثين إلى القول بأن العرب الجاهليين لم يعرفوا النقد الأدبي المعلن وما جاءنا من الأحكام النقدية منهم إنما هي قائمة على الفطرة الأدبية الساذجة والانفعال السريع. إنهم كانوا يعبرون عن الأفضلية، بأشعر الشعراء فإذا أرادوا أن يفضلوا شاعراً على شعراء آخرين قالوا بأن فلاناً أشعر الشعراء، أو إن هذا الشاعر أشعر من ذلك. مثلاً يروي عن لبيد أنه يفضل امرأ القيس ويعدّه أشعر الشعراء. كما يروي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أنه فضل امرأ القيس على غيره من الشعراء، عندما سئل من أشعر الشعراء (صالح، ١٤٢٢، ص ٦٩٨). ومثل هذا كثير في النقد الجاهلي.

دلالة أشعر الشعراء في النقد التفضيلي

إنّ هذا التعبير، أعني «أشعر الشعراء» ليس ذا مدلول واحد عند الجاهليين. وهذا ما يجب الانتباه إليه، لأنّ دراسة جلّ أحكام النقد الجاهلي متعلقة بهذا الأمر. والدليل على عدم دلالاته على مدلول واحد هو إنّ النابغة الذبياني فضلّ مرة الخنساء على حسان بن ثابت بأنها أشعر منه فاحتج حسان عليه وقد ذكرنا هذه القصة قبل هذا، وفضلّ مرة حسّانا بأنه أشعر (عتيق، ١٩٨٠، صص ٢٨-٢٩)، ومثل هذا كثير في الأدب الجاهلي.

كان همّ الناقد أن يدقق في القصيدة، لأن يكون حكمه التفضيلي صحيحاً. إنّ ما يهمّ الناقد هو نصّ القصيدة دون الشاعر وقبيلته وقومه وما يشتهرون به من فصاحة وبلاغة. ولا أريد أن أقول إنّ العصبية القبلية لم تؤثّر في النقد الجاهلي بل أريد أن أقول إنّ النقد التفضيلي للعرب لم يكن مطلقاً مستسلماً أمام شهرة الشاعر أو قبيلته وقومه بل كان يستند إلى النقد الفني والنقد التوصيفي في أغلب أحيانه.

إنّ الناقد الجاهلي في النقد التفضيلي يقوم بداية بنقد القصيدة نقداً فنياً متلائماً مع قدر ثقافته وحظه من الأدب والشعر ثم يقوم بتسجيل أحاسيسه تجاه القصيدة وهذه الحالة تكون تكلمة لنقده الفني - الذي يكون لغوياً في أغلب أحيانه - ثم يحاول أن يأخذ صورة من تلك الأحاسيس القائمة على الفطرة الأدبية حتّى يتسنى له نقدها نقداً توصيفياً ومن ثمّ، كان يحكم على الشعر والشعراء حسب هذه المعلومات والتوصيفات فيحكم عليها.

إنّ الناقد الجاهلي يريد من الشاعر أن يكون ارستقراطياً في خلق صورته الشعرية، كما يريد منه أن يكون بعيداً عن الأخطاء اللغوية والضعف التركيبي. كما يريد أن يكون نسج قصيدته تاماً وأن تكون الألفاظ أكثر ملائمة للمعاني. فمثلاً عندما يتذكر الإنسان ماضيه ويحنّ عليه يجب أن تكون الكلمات مثيرة للحزن والشفقة، وعندما يصف قوة سير دابته يجب أن تكون كلماته قوية وصلبة وذات حركات صوتية تدل على سرعة السير. مثل بيت امرئ القيس عندما يصف فرسه إذ يقول:

مكر مفر مقبل مدبر معاً كجلمود صخر حطّه السيل من عل

(البستاني، ١٤٢٩، ص ٣٤)

إنّ الشطر الأول إذا قُري بإحساس أدبي سليم يمثّل أمام أعيننا صورة جري هذه الفرس ويملاً أذاننا بوقع أقدامها على الأرض.

إنّ هذه الأمور ما كانت لتخفي على ذوق الأديب الجاهلي إذ كان يتفعل بها ويضطرب لها أشدّ الطرب وإن لا يجد ولا يجيد التعبير عمّا يشعر به تجاه مقطوعة أدبية إلا أن يتوصّل إلى توصيف تلك المشاهد الذهنية كما أسلفنا ذلك في النقد التوصيفي.

إذن إن هذه العناصر كانت أهم عوامل الناقد الجاهلي لتفضيل شاعر على آخر. لقد كانت تنقّ العرب إلى درجة عالية بصحته وعلم صاحبه بالشعر ومعاييرها. ولا نريد أن نقول أنّ كل نقدهم التفضيلي يعتمد على منهجية فقد يكون للانفعال السريع الذي يقول به بعض الكتاب أثراً واضحاً على هذا النقد.

إنّ علمهم ومعرفتهم بالشعر تُشبهه من جانب معرفتهم بالخيول إذ كانوا يمتلكون أجودها وهي الخيول العربية. إنّ العربي آنذاك وإن كان لا يعرف علوم الحيوان والبيطرة وغيرهما من العلوم التي تتصل بمعرفته، إلا أنّه يستطيع أن يفضلّ جوداً على جواد آخر حسب معايير أوحته إليه معاشرته للخيل؛ فينظر إلى العمر والقوة وطول القوائم وصلابتها كما ينظر إلى قصر الشعر وشكل الخواصر وغير ذلك فيحكم على الخيول بها. كذلك الناقد الجاهلي بحسب طبيعته الأدبية ومزاولته للشعر كان يستطيع أن يفضلّ قصيدة على قصيدة أخرى أو شاعر على شاعر آخر.

النقد التصنيفي

إنّ هذا النقد يحاول أن يجعل الشعراء في طبقات مختلفة حسب شاعريتهم وتفوقهم في الشعر فيجعل مثلاً عدة شعراء في الطبقة الأولى وجماعة أخرى منهم في طبقة أو درجة ثانية. إنّ النقد التصنيفي هو أعجب المناهج النقدية في العصر الجاهلي، إن تأملناه بدقة؛ لأنّه يصنّف طبقات الشعراء حسب أوصاف دقيقة في شعرهم. إنّ هذا النقد هو تجربة امّة بأكملها في التعامل مع أدبهم، تجربة أخذت في التطور والتكامل رويداً رويداً وتدلّ على قدم وعراقة واختصاص في الأدب وتطور في فنّ مزاولة الأدب وفي فهمه واستيعاب أسرار جماله.

إنّ النقد التصنيفي يحاول أن يصنّف الشعراء في طبقات مستنداً على نقد فنيّ وذوق أدبي رفيع يعرف ما بين كلام وكلام من فروق. أنّه يميز بين الأدب المطبوع الذي يأتي عفواً ومتلائماً مع المقام ومع أحاسيس الشاعر، وبين الأدب المصنوع الذي يأخذ قسطاً غير قليل من الإجهاد والابتعاد عن الصدق الفنيّ. أنّه يفرّق بين الشاعر الثرثار الذي يكرر ما لا كتته أفواه الشعراء وبين شاعر يستقلّ بشعره وإن كان يشترك في كثير ممن معانيه مع سابقه من الشعراء.

فقد جعل النقاد في العصر الجاهلي، الشعراء في أربع طبقات. فالأول هو الفحل الخنذيد الذي برع في شاعريته وتفوق في فنه الشعري والثاني هو الفحل الذي يلي الأول في مرتبته الشعرية وفنونه الأدبية والثالث هو الشاعر الذي لا يبلغ الأول والثاني في الشاعرية والرابع هو الشعروور (الحسين، د.ت، ص٢٣)، الذي يكون أضعف الشعراء أدباً ونسيجاً وعاطفة.

والواقع إنَّ الشعراء الجاهليين كانوا يخشون هذا النقد بشدة وكانوا يسعون إلى تجويد أشعارهم وتنقيحها حتى لا يبقى فيها اثر من الضعف ولا خلل فني؛ (م.ن، ص٣٣) ولكن لماذا كل هذا الخوف والخشية من هذا النقد؟ والسؤال الآخر هو ما قيمة هذا النقد وكيف يتم التصنيف؟ كل ذلك يحتاج إلى خبرة واسعة ومنهجية صحيحة كانت أو غير صحيحة.

إنَّ فكرة طبقات الشعراء التي ألفت فيها العديد من الأدباء بعد العصر الجاهلي هي وليدة الفكر النقدي الجاهلي. إنَّ وضع الشعراء في طبقات ليس بالأمر السهل، ولا يستطيع احدٌ أن ينتهج هذه الطريقة النقدية دون علمه بالشعر ونقده وبراعته في التمييز بين المعاني والألفاظ الشعرية.

لقد واصل محمد بن سلام مسيرة الأدباء الجاهليين في تقديمهم التصنيفي في كتابه «طبقات فحول الشعراء» الذي قسم فيه الشعراء إلى ثلاثة وعشرين طبقة (العاكوب، ١٩٩٨، ص١١٠)، إلا أنَّ هناك بعض التقسيمات والطبقات التي ابتدعها ابن سلام ولم تكن عند الجاهليين في تقديمهم التصنيفي. فمثلاً إنَّ ابن سلام يجري في تقسيمه على معيار الزمان فيقسم الشعراء إلى جاهليين وإسلاميين. كما ينظر في تقسيمه على الأغراض الشعرية والبيئة المكانية وغير ذلك من المعايير في تقسيماته للطبقات (صابري، ١٣٨٥، صص٨٠-٨١).

وقد انتهج هذه الطريقة أيضاً أبو زيد القرشي في كتابه جمهرة أشعار العرب فقسم الشعراء إلى سبع طبقات حسب تسميات العرب القدامى لها في الأغلب. فطبقة لأصحاب السموط وأخرى لأصحاب المجهرات وغيرها للمننقيات والمذهبات والمراثي والمشويات والملمحات (م.ن، صص٨٢-٨٣).

كل هذه الدراسات التي قامت فيما بعد، كانت استمراراً للنقد التصنيفي في العصر الجاهلي وهذا المنهج ليس سهلاً إذا نظرنا إليه بدقّة وتأمّل، لأنَّ الناقد في التصنيف يحتاج إلى النظر في النقد اللغوي والفني ونقد الأسلوب والمعاني وغيرها من المعايير علاوة على مقارنة الشعراء مع بعضهم البعض.

النتيجة

إننا ومن خلال دراستنا للملاحظات النقدية التي وصلتنا من العصر الجاهلي توصلنا أن العرب الجاهليين كانوا يعرفون النقد الأدبي، لكنهم كانوا محدودين في ثقافتهم الفكرية النقدية. ولهذا استطاعوا أن يعبروا عن بعض العيوب الشعرية بصراحة ووضوح تام، وذلك عندما يتعلق الأمر بالأخطاء اللغوية والمعنوية وعيوب البحور والقافية والروي.

وعندما كان الأمر يتجاوز هذه المفاهيم إلى غيرها كانوا يتجهون بنقدهم من الصراحة والوضوح إلى التوصيف والغموض. لكننا فهمنا إن هذه الأوصاف - على ما فيها من الغموض - ذات دلالات نقدية تنطبق على الشعر الجاهلي. فعندما كان الجاهلي يريد أن يعبر عن الأسلوب ورقته ورشاقتة كان يصفه بالتوصيفات الحسية. أنه بذلك يحاول أن يعبر عن أمور يفهمها في ذاته لكنه لا يستطيع أن يعبر عنها بصورة واضحة ومعللة.

كما أننا توصلنا أن النقد التفضيلي على ما فيه من المشاكل والعيوب، ذا دلالات نقدية تعتمد في اغلب الأحيان على النقد الفني والتوصيفي في الحكم. مع ذلك قد تُخطئ أحكامه كما يخطئ الكثير من النقاد المعاصرين.

وتوصلنا أيضاً إلى أن النقد التصنيفي كان من أصعب المناهج النقدية في العصر الجاهلي؛ لأنه كان يحاول ان يقسم الشعراء إلى طبقات مختلفة، حسب نظرة فنية وأدبية بحتة وخالصة من الاتجاهات السياسية والقبلية. وقد وُفق الجاهليون في أمرهم هذا نسبياً لما أوحوا به إلى المتأخرين من أهمية لهذا المنهج جعلتهم يتبعون خطاهم ويألفون فيه.

وأخيراً يجب أن نتذكر أن مناهج النقد الجاهلي لها طبائع وأصول فنية كان النقاد الجاهليون يجدونها في فطرتهم الأدبية ويحكمون بها على شعر غيرهم ويتحاكمون بها في شعرهم إلى نقاد غيرهم. وقد وضع المتأخرون بعض أصول وقواعد هذه الفطرة الأدبية وأعطوها صبغة علمية.

المصادر والمراجع

١. إبراهيم، طه أحمد (دون تا). تاريخ النقد الأدبي عند العرب. بيروت: دار القلم.
٢. أمين، أحمد (١٩٨٣). النقد الأدبي. ط٥، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.
٣. بدوي، أحمد أحمد (١٩٩٦). أسس النقد الأدبي عند العرب. القاهرة: دار نهضة مصر.
٤. البستاني، فؤاد افرام (١٤٢٩هـ). المجاني الحديثه. ط٤، قم: ذوي القربى.
٥. الجمحي، محمد بن سلّام (دون تا). طبقات الشعراء. بيروت: دار النهضة العربية.
٦. حاج إبراهيمي، محمد كاظم (١٣٨٥ش). النقد الأدبي. ط٢، أصفهان: جامعة أصفهان.
٧. الحجازي، محمد طه (١٩٨٢). في تاريخ النقد والمذاهب الأدبية. بيروت: دار النهضة العربية.
٨. حسين، طه (دون تا). حديث الأربعاء. ط١٥، القاهرة: دار المعارف.
٩. الحسين، قصي (دون تا). النقد الأدبي ومدارسه عند العرب. بيروت: دار ومكتبة الهلال.
١٠. زيدان، جرجي (١٩٥٧). تاريخ آداب اللغة العربية. القاهرة: دار الهلال.
١١. الشرقاوي، عفتّ (دون تا). دروس ونصوص في قضايا الأدب الجاهلي. بيروت: دار النهضة العربية.
١٢. صابري، علي (١٣٨٥ش). النقد وتطوره في الأدب العربي. ط٤، تهران: سمت.
١٣. صبحي، صالح (١٤٢٢هـ). نهج البلاغة. ط٢، قم: دار الهجرة.
١٤. ضيف، شوقي (دون تا). الأدب العربي المعاصر في مصر. ط١٣، القاهرة: دار المعارف.
١٥. _____ (١٤٢٧هـ). تاريخ الأدب العربي. ط٢، قم: ذوي القربى.
١٦. _____ (١٩٦٤). النقد. ط٢، القاهرة: دار المعارف.
١٧. العاكوب، عيسى علي (١٩٩٨). التفكير النقدي عند العرب. ط٦، بيروت: دار الفكر المعاصر.
١٨. عباس، إحسان (١٩٨٣). تاريخ النقد الأدبي عند العرب. ط٦، بيروت: دار الثقافة.
١٩. عتيق، عبدالعزيز (دون تا). في النقد الأدبي. بيروت: دار النهضة العربية.
٢٠. _____ (١٩٨٠). تاريخ النقد الأدبي عند العرب. بيروت: دار النهضة العربية.
٢١. القصاب، وليد (٢٠٠٥). النقد العربي القديم. دمشق: دار الفكر.
٢٢. مصطفى، محمد حسن (٢٠٠٢). مقامات بديع الزمان الهمذاني. دمشق: دار القلم العربي.